تغريبة

الى محمود درويش

لبيروت وجهان
وجهٌ لحيفا
ونحن صديقان
سجناً ومنفى
قطعنا بلاداً وراء بلاد
وها نحنُ ، في تعتعاتِ الدوار
نعودُ
وزادُ المعاد

عناقٌ سريعٌ بباب مطار .
أكانَ اللقاءُ اعتذارا ؟
أكانَ الوداعُ فرارا ؟
بدون كلام نمدّ اليدينْ
ويا ليلُ يا عينُ
لا الليل ليلُ
ولا العينُ عينْ
يفرِّقنا العالمُ اليعربيُّ
ويجمعُنا العالم الأجنبيُّ
ونبقى أجانبَ في العالمين !
ويبقى الرحيلْ
مع الريح ، من منزلٍ في الجليلْ
إلى الريحِ
في فندق غامضٍ
يعانقُ فيه القتيل القتيلْ ..
بدون سلام
بدون كلام

تُقبِّل في عُنُقي قلبَ أُمِّكْ
« ورُبَّ أخٍ لكَ ... »
أُلقي بهمِّي على صدرِ هَمِّكْ
ونبكي ونضحكُ
.. في غربتينْ !
أتسألني كيف حالي
وأنت جوابُ السؤالِ ؟
عذابي فُلهْ
وموتي قُبلَهْ
بلا شفتينْ
ذهبتُ بعيداً
وعدتُ وحيداً
يتمتمُ فيَّ عجوزٌ حقودٌ :
متى ؟ كيف ؟ أينَ ؟
متى ؟
كيف ؟
أين ؟

للندنَ وجهانِ
وجهٌ لحيفا
ونحنُ رفيقانِ
خصما وإلفا ..
يؤرِّخنا الحبُّ والموتُ
في دفتر الأرضِ
تغريبة للمهاجرْ
وتغريبة للوطنْ
ونفضى بأسرارنا للقباب
وننقش أحزاننا في القناطرْ
ونُطلقْ من جرحنا عندليباً
يزلزل صمت الزمنْ
ونعجنُ بالدمع
خُبزَ المجازرْ !
أتَذْكُرُ ضرعاً شهياً
رضعناهُ دون شهيَّة ؟
وزيتونةً غادَرتْنا

كسائحة أجنبيّة ؟
وعاشقةً
ما رَحَمْنا هواها ،
وظلّت وفيّة ؟
أتذكُرُ أيّامَ جُعنا
معاً
وشبعنا
معاً
ثمّ جُعنا
معاً
وعشقنا
معاً
ثمَّ ضعنا ؟
سلامٌ عليكَ
سلامٌ عَلَيَّا
على الحبِّ
يولدُ

ثمَّ يموتُ
ـ سلامٌ عليه ـ
ويُبعثُ حيّا ؟
لكل المغنين
أمٌّ حزينه
وكلُّ مغنٍّ
مدينه
تنامُ
وفى قلبها نجمةٌ
وتصحو
وفي جُرحها .. غنغرينه ؟
ونحنُ ،
شروق الاغاريد كنّا
فهل سنكونُ
غروبَ الضغينه ؟ !
من « الرامة » الخائفه
الى « البروة» السالفه

إلى دمعةٍ بيننا واقفه
تقوم على الرمل دنيا
وتسقط في الوحلِ دنيا
واعداؤنا
لعنةٌ
يُحجمُ الموتُ
وهْي على رِسْلها زاحفه
وأنصارُنا
عملةٌ زائفه
فماذا عساني أفعلُ وحدي
وماذا ستفعل وَحدَكْ
وقد صارَ لحديَ مهدي
ومهدُك لَحْدك ؟
أأنشد عنكَ
وتنشد عني
لصحراء قاحلة قاحله
يموت على ساعديها المغني

وتتركه خلفها القافله ؟

أتخرجُ حوريّة البحرِ
من صدَفِ القاعِ
أم أوصدَ البحر أسرارهُ
وانتهينا ،
نُتمتمُ سخطاً :
متى ؟
كيف ؟
أينَ ؟!
تساءَلت في ساعةِ القصفِ ؟
هل أدركتْهُ القذائفْ
مُكباً على نبأ في جريدة ؟
وهل أخطأتْهُ القذائفْ
ليشربَ كأساً جديدة
ويودعَ لوعته في قصيدة !
تساءَلت : كيفَ هو الآن

غضبان

جوعان

بردان

خائف ؟

وهل فاجأتْهُ القذائف ؟

وهل أمهلتْه القذائف ؟

على شاشة التليفزيون

أبصرتُ وجهك في ضوء قُنبلةٍ مُشمسة

وكانت بقربك جثّةٌ طفله

وقصفةُ قُلَّه

وأفواهُ قتلى المحبة والشوقِ

مفغورةٌ ..

آخ.. أبواق خزيي وخوفي

تُجلجِلُ بالدمِّ

ما من سميع وما من مجيبْ

سوى قهقهات سكارى سدوم

وهزء عمورا وتلِّ أبيبْ

وأدنيتُ كفّي لوجهكَ
حاولتُ أن ألمسه
على شاشة التليفزيون
في ضوءِ قُنبلة مُشمسَه
وكانت بقربك جثّةُ طِفلهْ
على وَجهها وجهُ حُبّي « محمد »
و « وضّاح » يزعقُ رعباً
على شاشة التليفزيون
يزعقُ رعباً
ويجذبُ زندَ « عُمرْ »
لعلَّ ملاذاً ببعض الحُفَرْ
ومتُّ
ومتُّ
ومتُّ
ومات البَشَرْ
جميع البشرْ
ومات القمرْ
وراحتْ تكفّنه الريحُ سرّاً

وتدفنُه في هشيم الشجرْ
ولم يبقَ من عالم الله والناس
إلا خبرْ
شظايا خبرْ !
وكانت بقربك جنَّه
الى جنبِ جنَّة
وفي القلبِ جنَّه
وما كان بالقرب منّي
سوى دمع عيني
« وربَّ أخٍ .. »

لپاريس وجهان
وجهٌ لحيفا
ونحنُ شقيقان
حِلماً وسُخفا
وتعرفُ قلبي
وتعرفُ حزني

ووردةَ حُبي
وخيبةَ ظني
وتبصر بيتك في وهج صوتي
وأسمع صوتك
في صمتِ بيتي .
« ورُبَّ أخٍ لكَ ... »
فكَّرتُ فيك
لأني أحبُّ بلادي
وفكَّرتَ فيّ
لأنّ البلاد
ـ دع الشِّعر ـ
ليست تُفكِّر في النازحين
وليست تُفكِّر في الرازحين
ـ دع الشعر ـ
كيف يفكِّر صخرٌ وطين ؟
ـ دع الشِّعر ـ
نحنُ حطامُ الأغاني

ومجزرةُ القمح والياسمين
وأعداءُ أطفالنا يضربون
وأصحابُنا يكذبون
ولم يبقَ في الأرضِ
غير الذين
يحبُّوننا ميِّتين
وإن قدَّرَ اللهُ حُسْنَ النوايا
فقد يقبلون بنا لاجئين
ومُستضعَفين
ومستنزَفين ..
وفكَّرتُ فيك
وفكَّرتَ فيّ
لأن الشهيدَ
صديقٌ وفيّ !

لبيروت وجهانِ
وجهٌ لحيفا

٦٩٦

ونحنُ صديقان
سجناً ومنفى

للندن وجهان
وجهٌ لحيفا
ونحنُ رفيقان
حباً وخوفا

لباريس وجهان
وجهٌ لحيفا
ونحنُ شقيقان
قمعاً وعسفا

لتونس وجهان
وجهٌ لحيفا
ونحن غريبان
نحنُ غريبان

نحنُ غريبان

ما من زمانٍ

وما من مكانٍ

لماذا ؟ لماذا ؟

وأين ؟

وكيفا ؟

ووجهٌ ... لحيفا .